إسهامات الأستاذ الدكتور حسام الخطيب رحمه الله عضو المجمع المراسل في خدمة اللغة العربية وآدابها

أ.د.عبد النبي اصطيف

جامعة دمشق

خلاصة

أشار المحاضر، وهو واحد من أبرز تلامذة الدكتور حسام الخطيب، بعد استعراضه البرقي لسيرة أستاذه العلمية، إلى أن الناظر في هذه السيرة الحافلة بالإنجازات الفكرية والعلمية والثقافية، يتبين له بوضوح أن صاحبها بوصفه باحثاً مثقفاً، أو مثقفاً باحثاً، قد جمع بين البحث والدراسة والنقد والتأليف من جانب، وبين العمل العام مدرِّساً ومحرراً وأستاذاً جامعياً وإدارياً علمياً وبرلمانياً نشطاً على المستوى القطري والعربي والدولي من جانب آخر، وأنه تمكُّن من التوفيق، وبدرجة ملحوظة، بين النجاح في العمل العام وأداء الوظيفة الاجتماعية – أو الوظائف الاجتماعية– المنوطة به على وجه مرضٍ من جهة، وبين النجاح في العمل الخاص – العمل البحثي الذي يسعى من خلاله إلى دفع المعرفة الخاصة به خطواتٍ نحو الأمام من جهة أخرى. بل وأكثر من هذا فإن إسهامه في ميادين البحوث التي عمل فيها وخلال مايتجاوز ستة عقود، والذي يُعَدُّ بحق صوى بارزة لا يمكن تجاهلها من جانب أي متخصص في هذه الميادين، مرتبطٌ وعلى نحو عضوي بعمله العام الذي تبادل معه "التحفيز" "motivation" بصورة جعل كل منهما مديناً للآخر بطريقة أو بأخرى.

وبين أن خيطًا خفيًا يتخلل كل إسهامات الخطيب البحثية هو تساميه المستمر في مسعاه نحو الأفضل في كل فرصة تتيسّر له – هذا التسامي الذي يتجلى في مراجعته لعمله وتطويره وإغنائه حتى يستقيم له في صورة أفضل من سابقتها، وكأن شعاره الذي يحكم عمله البحثي "لا ترضَ بالحسن، فتش عن الأحسن". ولا شك أن تكوينه الثقافي الذي جمع فيه بين الثقافتين العربية والغربية، ينهل منهما ويعلّ على نحو مستمر، قد ساعد على توسيع آفاق نظرته إلى الأمور التي يتفحصها، وعلى وضعها باستمرار في إطار أوسع يكفل رؤيتها على نحو أكثر موضوعية مثلما يضمن الارتقاء بمعايير تقويمه لها.

بعدها تناول المحاضر حبّ حسام الخطيب الأول وهو النثر القصصي العربي في سورية، الذي بدأ مبكرا بالتحقيق الأدبي الذي أجراه في مجلة ***المعلم العربي*** عام 1966عن كتّاب القصة السورية، وأفضى به إلى الانصراف بعدها نحواً من ثلاث سنوات لدراسة **مسيرة هذه القصة بين عامي 1937 و 1967** في رسالته لدرجة الدكتوراه التي منحتها له **جامعة كامبريدج** عام 1969، ثم إلى نشره عدداً من المقالات والدراسات المهمة عن "المؤثرات الأجنبية في القصة السورية" في مجلة ***المعرفة***، وسواها في مطلع السبعينات، ثم إلى كتابه ***أبحاث نقدية ومقارنة*** " (1973)، وكتابه ***سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية*** الذي صدر عن **معهد البحوث والدراسات العالية** في القاهرة، وضمّ محاضراته على طلبة المعهد، ثم كان كتابه ***الرواية السورية في مرحلة النهوض 1959 – 1967*** " الذي صدر عام 1975، والذي صدر لاحقا عن **اتحاد الكتاب العرب** بدمشق في طبعة موسعة حملت عنوان "***روايات تحت المجهر***" ظهرت عام 1983، وتلاه كتابه الممتاز ***القصة القصيرة في سورية: ريادات ونصوص مفصلية*** عام 1998.

بعدها انتقل المحاضر إلى حبّ الخطيب الثاني الذي تداخل إلى حد كبير مع حبّه الأول هو حبّه للأدب المقارن نظراً، وتطبيقاً، وتأريخاً، وهو حبّ منشؤه تكوينه الثقافي الذي جمع فيه بين الثقافتين العربية والغربية مستعيناً على ذلك بمعرفته للإنكليزية التي درسها ودرّسها لغة وأدباً، وللفرنسية التي كانت لغته الثالثة، فضلاً عن أسفاره العديدة التي شملت معظم بقاع الأرض وامتدت نحواً من أربعة عقود خبر فيها غنى التنوع الإنساني، سياسة وفكراً وثقافة وفناً وأدباً وطريقة حياة. ومما يذكر للخطيب نجاحه في إدخال مقرّر الأدب المقارن في **جامعة دمشق** في برنامج الإجازة في اللغة العربية وآدابها وللمرة الأولى عام 1972 – 1973، ووضعه كتاب ***الأدب المقارن*** في جزئين خصص الأول منهما للنظرية والمنهج، وانصرف في الثاني منهما إلى الدراسات التطبيقية الرصينة. وقد كان للقارئ العربي عدد من الكتب المؤسسة في هذ الحقل المعرفي شملت: ***آفاق الأدب المقارن عربياً وعالمياً***،و ***الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة***، و ***الأدب العربي المقارن وصبوة العالمية***، فضلا على عشرات المقالات النظرية والتطبيقية في هذا الضرب من الدرس الأدبي.

ومثلما كان العمل العام حافزاً قوياً على انشغاله بالنثر القصصي العربي السوري والتأليف فيه، وتطوير نتاجه عنه، كان عمل الخطيب العام في سبيل قضية الأدب المقارن حافزاً مهماً للكثير مما أنجزه من دراسات مقارنة للأدب العربي الحديث، والتي تحوّلت بدورها إلى كتب لا يستغني عنها شداة هذا الحقل المعرفي المهم، أو المهتمون بتاريخه في الوطن العربي. والحقيقة أن عمله العام في هذا الميدان الذي غدا عنده "قضية عمر رفيعة وليس مجرّد تخصص أكاديمي ومهنة دنيوية يوميّة"

وأخرجتها

والحقيقة أن تواصل الخطيب مع الثقافة الغربية خاصة والعالمية عامة كان تواصلاً مستمراً يسرته له دراسته في بريطانية أولاً، وأسفاره الكثيرة إلى مختلف العواصم محاضراً أو مشاركاً في الاجتماعات والندوات والمؤتمرات ثانياً، ومشاركته في تحرير ***الآداب الأجنبية*** ورئاسته لتحريرها فيما بعد بين عامي 1982 و 1990 ثالثاً، وإقامته البحثية في الجامعات الأمريكية رابعاً ، فضلاً على ترجماته ومراجعاته لترجمات غيره ومشاركته الأخيرة في ترجمة ***موسوعة الأدب العالمي*** إلى العربية والتي تعهدتها مؤسسة عربية سعودية في الرياض موسوعة شاملة ظهرت في أكثر من طبعة. وكان مما أشار إليه المحاضر أن توجّه الخطيب في كل ما قام به من عمل عام أو عمل خاص كان توجهاً قومياً عربياً. ولذا فإنه لم ينقطع في يوم عن النظر إلى الظاهرة الأدبية القطرية المدروسة في إطار الظاهرة الأدبية العربية القومية حتى في دراسته للنثر القصصي في سورية، والتي سلخ فيها أكثر من أربعة عقود من عمره. وأكثر من هذا فإنه، وحتى في سعيه إلى إبراز الهوية الفلسطينية المهدّدة على مختلف المستويات من قبل العدو الصهيوني الشرس، حافظ على هذه العلاقة العضوية الحميمة بين الإسهام الأدبي العربي الفلسطيني والأدب العربي الحديث، بل ألح عليها. ذلك أنه وفضلاً على كون قضية فلسطين قضية العرب المركزية، ثمة مسوّغات داخلية من طبيعة المادة الأدبية المدروسة نفسها تؤكد الوحدة التي لا تنفصم لجسم الأدب العربي الحديث.

ومما يذكر للخطيب أيضا أنه، في كل ما ارتاده من آفاق، كان يبذل ما وسعه الوقت والجهد والخبرة المتنامية المصحوبة بالعزم والحزم منطلقاً نحوها برغبة صادقة في التطلع نحو الأفضل في الحياة الثقافية العربية، وكان غالباً ما يعود بحصيلة سرعان ما تتحول إلى صوى تهدي شداة البحث العلمي مثلما تعين ذوي الخبرة والمعرفة على المضي في درب العلم والحقيقة. ولكن السندباد القابع في أعماقه كان يدفعه باستمرار إلى الارتحال من جديد بحثاً عن الجديد، وكأنه كان يخشى إخلاق ديباجته، فيغترب ويتجدد ويجدّد ويمضي مثل بروميثوس يكتوي بالنار ويقدّم حصيلتها نوراً يهدي كل عربي متطلع نحو غد أفضل يليق بواضعي الألفباء الأولى في التاريخ، خلفاء الله الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم.